

أثر التشبيه على المعنى في القرآن الكريم



د. عمر بن عطية الله بن عبد الكريم الأنصاري^(*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:
فإن القرآن الكريم كتاب لا تنقضي عجائبه، ولن يبلغ عبد نهاية المعرفة لمعانيه ومقاصده، وكل محاولات البشر مقارنة لمعرفة معانيه، وما تحتويه من عبر وأسرار، ومن ذلك تشبيهاته الواردة في ثنايا آياته، ففي ثناياها عبر وأسرار، وموعظة واعتبار، ولن يعدم الباحث فيها تركيبة لنفسه، وسموا لروحه وعقله، إضافة إلى ما يظهر له بالتأمل من جليل المعاني، ودقيق الاستنباط، الذي يقوده إلى تعظيمه وتعظيم المتكلم به سبحانه؛ ولأجل ذلك فقد رغبت في كتابة بحث مختصر متعلق بذلك لألفت الأذهان إلى العناية بذلك وإفرادها بالبحث والتأمل.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهرس:

المبحث الأول: في الحديث عن التشبيه وتعريفه وأقسامه، وأركانه، وخصائص تشبيهات القرآن المتميزة عن غيرها، وذلك في مطالب.

المبحث الثاني: دراسة لجملة من الآيات القرآنية، التي تضمنت تشبيها، لبيان أثر التشبيه على معناها، وربما جمعت بين آيتين متعلقتين بموضوع واحد، أتطرق أولا إلى

بيان معنى الآية بشكل مختصر يوضح معناها، ثم أبين أثر التشبيه على المعنى، بما يبين بعض المعاني التي لم تتضح لولا الإتيان بهذا التشبيه، وذلك في مطالب.

وكتب التفسير على اختلافها وتنوعها، فيها إشارة - قليلة أو كثيرة - إلى شيء من ذلك، فما على الباحث إلا أن يتأمل ويستخرج ثم يعمل عقله ليخرج بعبرة عظيمة وفائدة جليلة من ذلك. أما الخاتمة ففيها أهم النتائج وبعدها قائمة المراجع.

والله أسأل أن يلهمنا الرشاد، ويهدينا الصواب، ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، فهو خير مأمول، ومنه يستمد المرغوب، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه:

عمر بن عطية الله الأنصاري

محاضر بجامعة الملك عبد العزيز

المملكة العربية السعودية - جدة

المبحث الأول

الكلام عن التشبيه من حيث تعريفه وأقسامه

وتحته مطالب:

المطلب الأول: تعريف التشبيه لغة:

التشبيه في اللغة يطلق ويراد به أحد معنيين:

الأول: المماثلة. تقول: أشبه الشيء الشيء وتشبه به وشابهه، أي ماثله.

قال ابن منظور: "(شبه) الشَّبَهُ والشَّبَةُ والشَّبِيهُ المَثَلُ والجمع أشْبَاهٌ وأشْبَهَ الشيءَ الشيءَ ماثله... وأشَبَّهْتُ فلاناً وشابهته واشتبَه عَلَيَّ وتَشَابَهَ الشيئَانِ واشتبَهَا أشْبَهَ كُلُّ واحدٍ صاحِبَه... والتَّشْبِيهُ التَّمثِيلُ"^(١).

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ٩٩.

وجائر أن يكون مراداً به: مشتبهاً في الخلق، مختلفاً في الطعم^(٢).

قال قتادة وغيره: يتشابه في الورق، قريب الشكل بعضه من بعض، ويتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً^(٣).

المعنى الثاني: الالتباس. تقول: اشتبه عليه الحق بالباطل أي التبس عليه ولم يعرف التمييز بينهما.

قال ابن منظور: "والشُّبْهُ الالتباسُ وأُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ مُشْكَلَةٌ يُشْبِهُ بَعْضُهَا

(١) لسان العرب ١٧/٨ مادة (شبه).

(٢) جامع البيان ٣٤٢/٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣٣٨/٣.

بعضاً... وشَبَّهَ عليه خَلَطَ عليه الأمرَ حتى اشتَبَهَ بغيره... وقال الليث المُشْتَبِهَاتُ مَنْ الْأُمُورِ الْمُشْكَلَاتُ وتقول شَبَّهْتَ عليَّ يا فلانُ إذا خَلَطَ عليك واشتَبَهَ الأمرُ إذا اختَلَطَ واشتَبَهَ عليَّ الشيءُ^(١)."

وفي المصباح المنير: "الشُّبُهَةُ فِي الْعَقِيدَةِ الْمَأْخُذُ الْمَلِكُ سُمِّيَتْ شُهْبَةً لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الْحَقَّ... وَشَبَّهْتُهُ عَلَيْهِ تَشْبِيْهًا مِثْلُ: لَبَسْتُهُ عَلَيْهِ تَلْبِيسًا وَزَنَا وَمَعْنَى^(٢)."

وسبب الالتباس بين الشيئين هو التشابه بينهما على من لا يستطيع التفريق، وهو أمر نسيي فما يكون مشتبهًا على شخص قد لا يكون مشتبهًا على آخر.

التشبيه في الاصطلاح:

قال الخطيب القزويني في الإيضاح: التشبيه: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى. والمراد بالتشبيه ها هنا: ما لم يكن على وجه الاستعارة الحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد^(٣).

وقال التفازاني معلقًا على هذا التعريف: وينبغي أن يزداد فيه قولنا: بالكاف ونحوه لفظًا أو تقديرًا؛ ليخرج عنه نحو: قاتل زيد عمرا، وجاءني زيد وعمرو^(٤). وعرفه الدكتور عبد الفتاح لاشين بقوله: عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى ما، بأداة ملفوظة أو ملحوظة كالكاف ونحوها لغرض مقصود^(٥). قال: (فالجمع بين شيئين): يدخل فيه التشبيه المفرد، (أو أشياء) يدخل فيه التشبيه المركب.

(ومعنى ما): شامل لجميع الأوصاف الحسية والعقلية والمفردة والمركبة.

(بأداة): ليطمئز من الاستعارة.

(١) لسان العرب ١٧/٨ مادة (شبه).

(٢) المصباح المنير ٣٥٨/١.

(٣) الإيضاح ١٦٤.

(٤) المطول ٣١١.

(٥) البيان في ضوء أساليب القرآن ٣٧.

(كالكاف ونحوها): ليخرج العطف لأنه جمع بين شيئين أو أشياء.

(والأداة الملحوظة): ليدخل التشبيه المضمير الأداة.

(لغرض مقصود): لئلا يكون عبثاً^(١).

ومما سبق من التعريفات يتضح لنا أن التشبيه في الاصطلاح يعتمد على أربعة أركان

هي: المشبه، والمشبّه به، ويسميان طرفا التشبيه، وأداة التشبيه ووجه الشبه.

المطلب الثاني: أركان التشبيه:

الأول والثاني: المشبه والمشبّه به:

ويسميان أيضاً ركنا التشبيه لأنه لا غنى عنهما في أي تشبيه، إذ لو استغني عن

أحدهما لخرج الكلام عن التشبيه إلى معنى آخر وهو الاستعارة.

قال التفّازاني في المطول: "قدم - أي الخطيب القزويني في تلخيص المفتاح -

البحث عن طرفيه لأصالتهم؛ لأن وجه الشبه معنى قائم بالطرفين، والأداة آلة لبيان

التشبيه، ولأن ذكر أحد الطرفين واجب ألّبتة بخلاف الوجه والأداة^(٢)".

وقد يحذف المشبه للعلم به^(٣)، كما في قوله تعالى: (صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَا

يَرْجِعُونَ) (١٨) البقرة: ١٨.

فالمشبّه محذوف تقديره: (هم) يعود على المنافقين، والمعنى: هم كالصم وكالكم

وكالعمي.

وينقسم الطرفان إلى عدة أقسام بعدة اعتبارات. فباستبار الاستناد إلى الحس

ينقسمان إلى أربعة أقسام:

الأول: أن يكون الطرفان حسيين.

أي يدركان بأحد الحواس الخمس الظاهرة إما البصر أو السمع أو الذوق أو الشم

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن ٣٧ في الهامش.

(٢) المطول ٣١١.

(٣) البيان في ضوء أساليب القرآن ٣٧.

أو اللمس. ومن ذلك قوله تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ) (٣٩) يس.

فشبه سبحانه القمر في منازل الأحياء بالعرجون القدام وهذا مما يدرك بالبصر. ويلتحق بالحسي: الأمور المتخيلة أو تسمى الخيالية وهي: الأمور المعدومة التي فرضت مجتمعة من أمور كل واحد منها مدرك بالحس^(١).

الثاني: أن يكون الطرفان عقليين.

أي يدركان بالعقل كتشبيه الإيمان بالحياة، والعلم بالنور. والكفر بالموت، والجهل بالظلام.

ويلحق بالعقلي الكيفيات الوجدانية التي تدركها النفس مثل الحب والبغض والألم واللذة والفرح والحزن، وإنما أحقوها بذلك لأنها لا تدرك بالحواس. ويلحق به أيضا نوع آخر سمي بالوهمي وهو: ما لا وجود له في الخارج ولو وجد لأدرك بالحواس ويمثل له بقول امرئ القيس:

أيقطني والمشرقي مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فشبه أسنان الحربة بأنياب الأغوال والغول مما لا وجود له في الخارج ولو وجد لأدرك بالحواس وقد كثر إيراده في أشعار العرب.

والفرق بين الوهمي والأمور المتخيلة التي ألحقت بتشبيه الحسي ظاهر، فالأمور الخيالية أجزاؤها التي ركبت منها موجودة في واقع الناس ومدركة بالحواس. أما الوهمي فلا وجود له في الخارج لا من حيث التركيب ولا من حيث الأجزاء.

وأما عن ورود تشبيه العقلي بالعقلي في القرآن الكريم فاختلف فيه فقال بعضهم: "أما تشبيه المعقول بالمعقول فلا يوجد في القرآن أصلا"^(٢).

(١) المطول ٣١٢.

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن ٥٣.

وعَدَّ بعض البلاغيين منه قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الصافات:

٦٥.

باعتبار أن كلا من ثمر الزقوم ورؤوس الشياطين عقلي لا يدرك بالحواس.
وأرى - والعلم عند الله تعالى - أن هذا من الخلاف النظري الذي لا يؤثر.

الثالث: تشبيه المعقول بالمحسوس:

أي أن يكون المشبه معنى من المعاني والمشبه به أمر حسي مدرك بالحواس. ومن أمثلة ذلك تشبيه المنية بالسبع، والعزم بالسيف، والأخلاق الكريمة بالعطر، ونحو ذلك. وقد كثر هذا النوع في القرآن الكريم فمثلاً: يشبه الله تعالى أعمال الكافرين بالرماد الذي تطير به الرياح الشديدة فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم: ١٨.

الرابع: تشبيه المحسوس بالمعقول:

أي أن يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً: كتشبيه العطر بالخلق الكريم، وتشبيه النجوم بالسنن، وتشبيه الدجى بالبدعة، ونحو ذلك. واختلف أهل البلاغة في جوازه، فمنعه العسكري والسكاكي والخطيب القزويني وغيرهم بحجة أن الحسي أقرب إلى الإدراك من العقلي ومعرفة المحسوس والإلمام بأحواله أيسر من تمثل المعقولات بل إن المعارف الحسية أساس المعرفة العقلية غالباً فالمعقول فرع عن المحسوس لأنه مستفاد منه ومنته إليه^(١).

وأجازه الرماني مع استقباحه لأن التشبيه عنده على ضربين حسن وقبيح؛ فالحسن الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بياناً، والقبيح ما كان خلاف ذلك. وشرحه بقوله: أن ما تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة، والمشاهد

(١) المطول ٣١٢. وفن التشبيه ٩٦/٢.

أوضح من الغائب... وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره، والقريب أوضح من البعيد في الجملة.

وأجازه كثيرون غيره مع استحسانه كابن رشيق وابن السبكي وابن الأثير والعلوي وقال: هو من لطيف التشبيهات، وأرقها، وأدخلها في البلاغة وأدقها، ووجه البلاغة فيه: هو إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور والجلاء فيصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس وهذا في نهاية البلاغة^(١).

ونظرا لوجود هذا النوع بكثرة في أشعار العرب كقول أمين الدولة التنوخي:

أتانا بكانسون يشب ضرامه كقلب محب أو كصدر حسود

كأن احمرار النار من تحت فحمه خدود عذارى في معاجر سود

فقد اعتذر السعد التفتازاني في المطول بأن هذا من باب المبالغة فقال: "و أما ما جاء في الأشعار من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدر المعقول محسوسا ويجعل كالأصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة فيصح التشبيه حينئذ"^(٢).

المطلب الثالث: أقسامه

وينقسم التشبيه باعتبار الأفراد والتركيب إلى أربعة أقسام كذلك:

الأول: أن يكون الطرفان مفردين: كتشبيه الخد بالورد، والشمس بالحجة، والحسناء بالقمر، ونحو ذلك. وقد يكون الطرفان في التشبيه المفرد مطلقان عن أي قيد من صفة أو حال أو ظرف أو إضافة وغيرها، وقد يكونا مقيدين بشيء من ذلك أو أحدهما مقيد والآخر مطلق^(٣).

ومن المفردين المطلقين قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ آيَاتُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ الرحمن: ٥٨. ومما ورد في كتاب الله تعالى من تقييد المشبه به المفرد قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ

(١) فن التشبيه ٩٧ - ٩٨.

(٢) المطول ٣١٢.

(٣) المنهاج الواضح ٤٩.

مُسْتَنْفَرَةٌ {٥٠} فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ المذثر: ٥٠-٥١.

فشبه إعراض الكفار عن الذكر بالحر التي نفرت من أسد أو صائد، وليس بمطلق الحر.

وأما تقييد الطرفين فمنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنَيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الصف: ٤.

الثاني: أن يكون الطرفان مركبين:

والمقصود بالتركيب فيهما أن يكون كل من المشبه والمشبه هيئة حاصلة من عدة أمور. وقد يجوز أن يشبه كل جزء من أجزاء المشبه بجزء من أجزاء المشبه به. ولكن ذلك مع الفارق بحيث تفقد جمال الهيئة الكاملة التي قصد إليها التكلم بالتشبيه.

وقال السعد في المطول: "وقد يكون بحيث يحسن تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر... لكن أين هو عن التشبيه الذي يريك الهيئة التي تملأ القلب سرورا وعجبا"^(١).

ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِنَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الجمعة: ٥.

ومن أمثلته الشعرية قول بشار بن برد^(٢):

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فالمشبه: الهيئة الحاصلة من مثار الغبار فوق الرؤوس والسيوف المتلاحمة اللامعة تهاوي على رؤوس الأعداء، والمشبه به هو الهيئة الحاصلة من الليل تهاوى فيه الكواكب.

(١) المطول ٣٣٦.

(٢) ديوان بشار بن برد ١٦٧/١.

ويمكن القول بأن الشاعر شبه انتشار الغبار بالليل، وشبه السيوف بالكواكب، ولكن أين ذلك من الروعة التي يحسها السامع أو القارئ عندما يعرف التشبيه بميئته الكاملة.

الثالث: أن يكون المشبه مركبا والمشبه به مفردا:

ومن أمثله في القرآن قوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا) (١٩) الإنسان.

فالمشبه هو الهيئة الحاصلة من تفرق الولدان المخلدون في خدمة أهل الجنة، والمشبه به هو اللؤلؤ المنثور وهو هنا مفرد مقيد بالانتثار، فلا يصلح اللؤلؤ المنظوم مشبها به في هذه الحال.

الرابع: أن يكون المشبه مفردا والمشبه به مركبا:

ومن أمثله الشعرية قول أحمد بن محمد الصنوبري^(١):

وكان حمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

فيشبه شقائق النعمان حال ميلانها واعتدالها بسبب الرياح وهو مشبه مفرد مقيد، بأعلام ياقوت المنشورة على رؤوس الرماح الزبرجدية، وهي صورة مركبة.

الركن الثالث: أداة التشبيه:

وأداة التشبيه هي: اللفظ الرابط بين الطرفين والدال على معنى التشبيه.

قال الطيبي: "و هي ما يتوصل به إلى وصف المشبه بمشاركته المشبه به في الوجه"^(٢).

وعبر عن الرابط بلفظ الأداة ليشمل الاسم والفعل والحرف.

(١) أسرار البلاغة ١٥٨ والمطول ٣١٣.

(٢) التبيان في علم المعاني والبدیع والبيان ٢١٢.

وأشهر هذه الأدوات وأكثرها استعمالاً هو الكاف؛ ومرد ذلك إلى بساطتها وكونها حرفاً واحداً لا تركيب فيها^(١).

لأن التركيب من شأنه أن يؤدي إلى خصوصية في المعنى، فالركب يدل على أصل المعنى وزيادة كما هو الشأن في (كأن) من دلالتها على التشبيه المؤكد، أما الكاف فلا تدل إلا على الأصل وهو التشبيه^(٢)؛ ولهذا السبب فإن التشبيه عندما يكون محذوف الأداة يتعين أن تكون الأداة المقدرة فيه هي الكاف؛ نظراً إلى أنها هي الأصل، وتأتي للدلالة على مطلق التشبيه، فهي تصلح مع جميع الشواهد^(٣). ونزيد البيان في أداتي التشبيه: الكاف وكأن.

أداة التشبيه الكاف:

والأصل فيها أن يليها المشبه به دائماً كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ القارعة: ٤.

وقد لا يلي الكاف المشبه به وذلك في التشبيه المركب فليها أحد أجزاء الصورة المركبة كما في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ الكهف: ٤٥.

فليس المشبه به الماء، وإنما المشبه به هو نزول الماء على الأرض الخصبة التي تنبت نباتاً زاهياً ومخضراً ثم ييبس بعد ذلك ويصبح هشيماً محطماً، ولكن الماء أحد أجزاء الصورة المركبة.

(٣) شروح التلخيص ٣ / ٣٨٥.

(١) أدوات التشبيه واستعمالها في القرآن الكريم ١٠٥.

(٢) أدوات التشبيه واستعمالها في القرآن الكريم ٢٠٦.

أداة التشبيه كأن:

والأصل في كأن أن يليها المشبه، كما في قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ

المدر. (٥٠)

وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ آيَاتُ الْفَوْثِ وَالْمِرْجَانِ﴾ (٥٨) الرحمن.

وأمثلتها في القرآن كثيرة.

ويختص التشبيه بـكأن بخصائص منها^(١):

أولاً: أن فيه من المبالغة والتأكيد ما ليس في الكاف وغيرها لذا فهي تستعمل حيث يقوى التشبيه ويتأكد، والمبالغة فيها ناشئة عن تقديم الكاف على (أن) وصيرورة المشبه داخلاً في جنس المشبه به.

ثانياً: أن الاهتمام عند التشبيه بما يكون منصبا على المشبه؛ خاصة إذا كان له ذكر سابق أو ارتباط بمذكور سابق قبل جملة التشبيه، وربما جاء وجه الشبه في المشبه أعظم منه في المشبه به في بعض حالات التشبيه ويكون المقصود من التشبيه التقريب، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (٤٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكُونٌ﴾ الصافات.

وقد يأتي وجه الشبه في بعض الحالات الأخرى في المشبه به أعظم من المشبه في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَاهِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ النور: ٣٥.

ولكن في جميع الحالات يكون الاهتمام في الكلام منصبا على المشبه.

(١) أدوات التشبيه واستعمالها في القرآن الكريم ١٨٩ وما بعدها.

ثالثاً: تتميز كأن بمحيئها في كل تشبيه فيه غرابة ناشئة من كون المشبه به غير محقق الوقوع لكونه مستحيلاً عقلاً أو عادة أو لبعده عن المشبه. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿مُجِدِّ لُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦) الأنفال.

فشبه تعالى حال من يسار بهم إلى النصر والغنيمة وهم خائفون فرعون بحال من يساق إلى الموت والصغار وهو ينظر إلى أسبابه ولا يشك في مصيره، فبين المشبه والمشبه به بعد من جهة اختلاف المآل فيهما؛ وذلك لأن الخروج إلى الجهاد ليس خروجاً إلى مهانة وذل، وكذلك الموت فيه غير محقق بينما المشبه به سوق إلى موت محقق وحمل على مهانة وذل؛ فجاء التشبيه بكأن لما بينهما من الغرابة والبعد^(١).

وربما ظهر لأصحاب الذوق البلاغي جهات في التفريق بين الأداتين غير ما ذكر بتأمل الشواهد القرآنية والشعرية، ولكن حسبنا إشارة إلى بعض ذلك. ولا يجب في التشبيه ذكر الأداة، فيجوز حذفها كقولك: العلم نور في الهداية، وهند بدر في الجمال، وزيد أسد في الشجاعة، ونحو ذلك.

أقسام التشبيه من جهة الأداة:

ينقسم التشبيه من جهة الأداة إلى قسمين:

الأول: التشبيه المرسل: وهو ما ذكرت فيه الأداة.

الثاني: التشبيه المؤكد: وهو ما حذفت منه الأداة.

والمؤكد أبلغ من المرسل^(٢)؛ فإن حذف الأداة مشعر بقرب اتحاد المشبه بالمشبه به، وذكر الأداة يذهب من النفس هذا المعنى، وكذلك لأن التشبيه الذي تحذف منه الأداة أوجز في العبارة فهو أبلغ. وقد يأتي المرسل أبلغ من المؤكد أحياناً فقد يبدع المتكلم في

(١) أدوات التشبيه واستعمالها في القرآن الكريم ٢٠٠.

(٢) المنهاج الواضح ٧٨.

تشبيه ذكرت أدواته ويقصر في تشبيه لم تذكر أدواته. ولكن إذا تساوت صورتان ووجه الشبه فالمؤكد أبلغ.

الركن الرابع: وجه الشبه:

وهو المعنى الذي يلحظه المتكلم للجمع بين المشبه والمشبّه به. ويشترط فيه أن يكون مقصودا للمتكلم^(١)؛ لأن الطرفين قد يشتركان في أكثر من معنى، فليس كل معنى اشتركا فيه هو وجه للشبه إلا ما قصد إليه المتكلم.

ويجب مراعاة جهة التشبيه مراعاة تامة؛ لأنها عنوان الدقة، ومظهر الإصابة، ومجلى الذوق السليم والمنطق المستقيم، والنظر العميق النافذ إلى صميم الأشياء، ودليل القدرة على المقارنة المستوعبة، وإصدار الأحكام العادلة المتزنة^(٢).

يقول الشيخ عبد القاهر: "إن من حق العاقل ألا يتعدى بالتشبيه الجهة المقصودة ولا سيما في العقليات"^(٣).

ولا تتوقف جودة التشبيه على كثرة الاشتراك في الصفات فقد لا تكون هناك صفات متعددة تقضي بهذا الاشتراك، وإنما المهم إصابة جهة الاشتراك وقد تكون هذه الجهة معنى واحدا^(٤).

ويجب أن يوجد الوجه المقصود في كلا الطرفين إما تحقيقاً أو تخيلاً، وما لم يوجد في الطرفين على إحدى هاتين الصفتين لم يصح أن يكون وجه شبه^(٥).

أقسام التشبيه من جهة الوجه:

وينقسم التشبيه باعتبار الوجه إلى أقسام عديدة. فباعتبار الذكر والحذف ينقسم

قسمين:

(١) المنهاج الواضح ٥٩.

(٢) فن التشبيه ١/١٣٨.

(٣) أسرار البلاغة ٥٣.

(٤) فن التشبيه ١/١٣٩.

(٥) المنهاج الواضح ٢٩/٥.

الأول: المفصل: وهو ما ذكر فيه وجه الشبه.

الثاني: الحمل: وهو ما لم يذكر فيه وجه الشبه. وقد يكون الوجه في هذا القسم ظاهراً بحيث يدركه عامة الناس، وقد يكون خفياً لا يدرك ببديهة النظر بل يحتاج فيه إلى تأول يدركه من ارتفع عن طبقة العامة^(١).

وغالب تشبيهات القرآن من التشبيهات المجملة التي لم يذكر فيها الوجه، من أجل إعمال العقل في التدبر، والله أعلم.

المطلب الرابع: أقسام التشبيه:

مر ذكر بعض أقسام التشبيه باعتبار الطرفين أو الأداة أو وجه الشبه، وأريد هنا أن أذكر بعض الأقسام التي لم يمر ذكرها، ومن ذلك:

التشبيه البليغ:

وهو التشبيه الذي لم يذكر فيه وجه الشبه ولا أدواته. وسمي بليغاً لأن فيه من إفادة المبالغة ما لا يفيد ذكر الوجه أو الأداة أو كليهما^(٢).

فترك الوجه يفيد بحسب الظاهر عموم جهة الإلحاق أي أن المشبه يماثل المشبه به في جميع صفاته؛ إذ لا ترجيح لبعض الصفات على بعض عند ترك الوجه، وهذا يقوي دعوى الاتحاد بين الطرفين، وترك الأداة يفيد بحسب الظاهر أن المشبه محمول على المشبه به والحمل يقتضي اتحادهما معنى، وإلا لما صح الحمل. وهذا يعني أن المشبه هو بعينه المشبه به.

التشبيه الضمني:

ويسمى التشبيه الكئائي وهو: الكلام الذي يأتي به المتكلم كرهان أو دليل أو حجة يثبت به صحة ما ذكره من معنى عقب ذلك المعنى.

(١) الإيضاح ١٩١.

(٢) منهاج ٩٢/١.

وأمثلته في الشعر العربي كثيرة منها قول أبي تمام:
 وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
 لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
 فالمعنى الذي أراده الشاعر قد تم في البيت الأول، ولكن لأجل أن يثبت هذا المعنى
 الذي قد يستنكر ابتداء - وهو انتشار الفضيلة بسبب الحسود - جاء بالبيت الثاني
 دليلاً على صحة ما ذكره من معنى.
 فهذا النوع من التشبيه لا يأتي على صور التشبيه المعروفة ولكنه يستفاد بالتأمل؛
 ولذلك سمي ضمناً لأنه لا يذكر صراحة في الكلام، ولا شك أنه معنى يقصد إليه
 المتكلم.

ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ
 يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخَيِّ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:
 ٥٠).

التشبيه التمثيلي:

الذي استقر عليه البيانون هو أن التشبيه التمثيلي: ما كان وجه الشبه فيه صورة
 منتزعة من متعدد، محسوسة كانت الصورة أم معقولة^(١).

ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥).

فوجه الشبه في الآية هو الصورة المنتزعة من نزول الماء على الأرض، ثم إخراج
 الأرض لنباتها، واخضرارها حتى تبدو جميلة للناظرين، ثم ييس ذلك النبات حتى يصبح

(١) فنون البلاغة وأفانها، ص ٦٤.

هشيمًا محطما، فكذلك الدنيا تبدوا جميلة حلوة خضرة، ثم تبدل زيتنها وحلاوتها إلى نغص وكدر، ثم يموت الإنسان عنها، وكأنها لم تكن.

المطلب الخامس: خصائص التشبيهات القرآنية:

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، واستعمل أساليبهم في الكلام، ومن ضمن الأساليب التي استعملها أسلوب التشبيه، ولكن بتأمل يسير لتشبيهات القرآن الكريم نجد أنها تتميز عن التشبيه الوارد في لغة العرب بعدة مميزات، وسأجمل القول عن بعضها اختصاراً:

فمن هذه الخصائص:

١. أن تشبيهاته غير مقيدة ببيئة معينة، فلم تنحصر في عصر دون عصر، ولم تقتصر على مكان دون آخر، إنما هي تشبيهات عامة تستمد عناصرها من الطبيعة، وتأخذ أجزائها من الكون، فليست لفئة خاصة، أو قوم بأعيانهم.
٢. أن عناصر التشبيه في القرآن الكريم لا غناء لحياة الإنسان عنها، وذلك مما يزيد تأثيرها في النفس، ونفوذها في القلب.
٣. أن تشبيهات القرآن الكريم جاءت متسقة مع الغرض الذي سبقت لأجله، فقد نجد الشيء الواحد يشبه به أكثر من أمر لأن ذلك الشيء لوحظ فيه صفات متعددة، فروع كل جانب ليتناسب ويتطابق مع المشبه الذي قصد القرآن الحديث عنه.
٤. الدقة في اختيار الألفاظ، وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته التي تحدث عنها، وهي ظاهرة جداً في التشبيه.
٥. تشبيهات القرآن بعيدة عن ترف الخيال، ورعونة العاطفة، وسرف القول وفضوله.
٦. تشبيهات القرآن الكريم كلها تدور حول الإنسان، تشبهه تارة، وتشبه له تارة

أخرى، تشبهه بما يناسب وضعه، وتشبه له بما يحيط به من هذا الكون مما لا غنى له عنه في حياته ووجوده.

وبعد ذكر هذه القواعد المهمة المتعلقة بالتشبيه سنطبق على جملة من آيات القرآن الكريم ليتبين لنا أثر التشبيه على معنى الآية بالإيضاح والظهور الإقناع ونحو ذلك.

* * *

المبحث الثاني

دراسة تطبيقية على بعض آيات القرآن الكريم

وتحت مطالب:

المطلب الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ﴾ الشورى:

٣٢.

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ﴾ الرحمن: ٢٤.

معنى الآيتين:

يخبر جل في علاه أن من آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخير البحر لتجري فيه السفن الصغيرة والعظيمة التي تشبه في عظمتها وضخامتها الجبال الرواسي بأمره تعالى.

والمقصود بالجواري: السفن العظيمة التي تسع ناساً كثيرين، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر^(١).

وعدل عن لفظ الفلك إلى (الجوار) إيماء إلى محل العبرة؛ لأن العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها^(٢).

قوله سبحانه: (كَالْأَغْلَامِ) : أي كالجبال، واحداً: علم. وقال الخليل بن أحمد: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم^(٣).

وقال الألوسي: والاعلام جمع علم وهو الجبل وأصله الأثر الذي يعلم به الشيء كعلم الطريق وعلم الجيش وسمى الجبل علماً لذلك، ولا اختصاص له بالجبل الذي عليه النار للاهتمام. بل إذا أريد ذلك قيد^(٤).

(١) التحرير والتنوير ١٠٥/١٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٠٥/١٢.

(٣) معالم التنزيل ١٩٦/٧.

(٤) روح المعاني ٤٢/٢٥.

أثر التشبيه على المعنى:

هذا التشبيه من تشبيه المفرد بالمفرد وهو تشبيه مرسل ومجمل؛ فقد ذكرت أدواته، ولم يذكر وجهه. ويشترك الطرفان في الوجه من جهات حسية وأخرى معنوية. فالحسية من جهة العظم والضحامة وسعة المساحة، وكذلك في الارتفاع. والمعنوية من جهة أن الطرفين فيهما هداية ودلالة. ونجد في التشبيه أن الله تعالى شبه الجواري بالجمال، وعلى القول الآخر شبهها بكل شيء مرتفع عن الأرض من جهة كونها أعلام، أي علامات يستدل بها ويهتدى.

فالجمال تعتبر علامات هداية ودلالة يستدل بها الناس على صحة الطريق التي يسلكونها في أسفارهم. وهي كذلك علامة هداية ودلالة تدل على وجود الله تعالى وعظيم قدرته وسلطانه، برسوها وثباتها وارتفاعها قال تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ الغاشية).

وبكونها أوتادا مثبتة للأرض تمنعها من الاضطراب والتحرك إلا بقدرته الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادٌ﴾ النبا: ٧.

وكذلك السفن العظيمة الجارية في البحر تدل على عظمة الله تعالى. فهي مع ضخامتها وعظمتها فإن الذي يحركها ويجريها هو الله تعالى ولذلك قال سبحانه بعدها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ {٣٣} أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَأَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ الشورى: ٣٣ - ٣٤.

فإذا أمسك سبحانه الريح ظلت راكدة على وجه البحر لا تتحرك، أو إن يشأ سبحانه يوقفها إما بالإغراق والدمار، أو بإرسال الرياح العاصفة التي تفقد ربانها السيطرة عليها وتصبح الأمواج تقذف بالسفينة إلى كل جهة، ولو اجتمع الناس على أن يحركوا سفينة عظيمة ما قدروا على ذلك.

ولا يمنع هذه الدلالة ما يوجد في العصر الحديث من الوقود وسائر الابتكارات التي تحرك السفن؛ فإن الذي هدى الناس إليها هو الله تعالى، وهو سبحانه الذي أودع فيها قوة التحريك.

والسفن مع هذا العظم والضخامة فإنما تطفو فوق سطح الماء ويحملها وهو جوهر سيال يعجز عن حمل حجر صغير أو حديدة صغيرة، أو إنسان واحد فكيف سخره الله تعالى لحمل آلاف الأطنان دون أن تغرق الجارية بها والحاملة لها، فهذا مما يدل على عظمة الله تعالى.

وهي كذلك مع عظمها وضخامتها فإن حجمها بالنسبة للبحر كلا شيء، والبحر آية من آيات الله تعالى، وجندي من جنوده، فالعباد وإن ركبوا الجوّاري فيه فلا خروج لهم عن قدرة الله تعالى.

وهذه الأوجه السابقة أنسب في هذا مقام سورة الشورى لأن سياق الآيات جاء للدلالة على قدرة الله تعالى.

ويمكن القول بأن هذه الجوّاري في البحر أيضا علامة هداية ودلالة على فضل الله على عباده وسعة نعمته عليهم فهي مع ضخامتها وثقلها مسخرة لمصلحة العباد ينتقلون عليها وينقلون عليها بضائعهم وتجاراتهم، وهذا الوجه أنسب في مقام سورة الرحمن لأن سياق الآيات في بيان نعم الله على عباده.

وقد قال الله سبحانه ممثنا على عباده في سورة الزخرف: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ {١٢} لَتَسْتَبْشِرُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ الزخرف: ١٢-١٣.

قال الإمام الرازي: "ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها في قلوبهم، وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جرم السفينة على وجه

يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد، فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها^(١).

وقد خص الله تعالى المؤمنين بفهم هذه الآيات التي تدل على عظمة الله سبحانه وقدرته ونعمته على عباده فقال سبحانه: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (٣٣) الشورى.

المطلب الثاني: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ﴾ الصف: ٤.

معنى الآية:

يبين الله جل جلاله في هذه الآية أنه يحب من عباده أن يجاهدوا في سبيله لإعلاء كلمته وإعزاز دينه، وبين سبحانه لهم كيف يصنعون فيه وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفا متراسا متساويا، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعااض وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضا.

قوله: (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ) الرص: انضمام الأشياء بعضها إلى بعض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فتسميه أهل مكة المرصوص^(٢). وقيل: (مَرَّصُومٌ): مبني بالرصاص.

(١) مفاتيح الغيب ١٩٩/٢٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٣١٣/٢٩.

قال الفراء: مرصوص بالرصاص^(١).

أثر التشبيه على المعنى:

هذا التشبيه من التشبيه المرسل المفصل فقد ذكرت أدواته ووجهه.

ووجه الشبه بينهما من جهتين حسية ومعنوية:

فالحسية: هي الاصطفاف والتراص والتساوي، فكما أن البنيان يكون متساوي الأجزاء، ومرصوصة حجارتها بعضها بجانب بعض، فكذلك حال المجاهدين يكونون صفوفًا متراسة بعضهم بجانب بعض، ومتراصين ليس فيهم متقدم ولا متأخر. وهي مناسبة لحال المجاهدين قبل بدء المعركة ونشوب القتال، وهي الحال المناسبة للمقاتلين في جميع الجيوش.

وعليه يحمل كلام المفسرين الذين قالوا بذلك.

أما الجهة المعنوية: فهي أنهم يكونون في حال اجتماع قلوبهم، واستواء نياتهم، ووحدة كلمتهم، وموالاته بعضهم لبعض، كالبنیان المرصوص في اجتماع لبناته، واعتماد بعضها على بعض حتى تبدوا كأها قطعة واحدة، وهي مناسبة لحال المجاهدين منذ بدأ الاستعداد للقتال إلى نهاية المعركة؛ إذ لا يمكن أن يكونوا صفا واحدا مع الفرقة والاختلاف. وعليه يحمل كلام المفسرين الذين قالوا بوجه الشبه المعنوي لاستعدادهم أن يكونوا صفا واحدا متراصين والمعركة تتطلب منهم كرا وفرا.

وأداة التشبيه (كأن) تأتي في التشبيه المبالغ فيه والتأكد؛ لتدل على أهمية المبالغة والاهتمام من قبل المجاهدين في سبيل الله تعالى بأن تكون صفوفهم وقلوبهم كالبنیان المرصوص، وكذلك تأتي لتدل على الاهتمام بالمشبه، وهو هنا المقاتلون في سبيل الله لتؤكد أن تحقيق هذا الأمر -وهو أن تكون صفوفهم كأها بنيان مرصوص- يتوجه إليهم ويجب عليهم ليؤيدهم الله تعالى، ويتحقق لهم النصر، وأنهم إذا قصروا في ذلك

(١) مفاتيح الغيب ٣١٢/٢٩.

أتاهم من الخذلان بقدر تقصيرهم، وإلا فإن الله تعالى لا يغالبه مغالب، ولا يعزه عزيز.
المطلب الثالث: قال تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا
(١٩) الإنسان.

معنى الآية:

وردت هذه الآية في سورة الإنسان، وتتميز هذه السورة بوصف نعيم أهل الجنة وصفا مطولا ومن هذا النعيم أنه يطوف على أهل الجنة ويسعى في خدمتهم (وِلْدَانٌ) والولدان جمع وليد أي المولود حديثا فهو فعيل بمعنى مفعول، وهذه الصفة أحسن ما تكون في الخدم؛ لأنهم أخف حركة وأسرع مشياً ولأن المخدم لا يتخرج إذا أمرهم أو نهاهم^(١).

ووصف الله تعالى هؤلاء الولدان بأنهم: (مُخَلَّدُونَ) واختلف في معناها فقيل: أي باقون على هذه الصفة لا يشبون ويكتهلون، فلا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوماً وإلا فإن خلود الذوات في الجنة معلوم فما كان ذكره إلا لأنه تخليد خاص^(٢).
وقيل: عني به أنهم دائم شباهم، لا يتغيرون عن تلك السن. وذكر عن العرب أنها تقول للرجل إذا كبر وثبت سواد شعره: إنه لمخلد؛ كذلك إذا كبر وثبت أضراسه وأسنانها قيل: إنه لمخلد، يراد به أنه ثابت الحال^(٣).

قال الرازي: والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يبرأ في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة^(٤).

وقيل: إنهم مزينون ومحلون بالخلدة وهي حلية توضع في الآذان كالقرط.

(١) التحرير والتنوير ٣٩٧/١٤.

(٢) التحرير والتنوير ٣٩٧/١٤.

(٣) جامع البيان ٢٦١/٢٩-٢٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٥١/٣٠.

ولا يمتنع عنهم إرادة الوصفين فمن القواعد المقررة في علم التفسير أنه إذا احتمل اللفظ معاني عدة ولم يمتنع إرادة الجميع حمل عليها^(١).

(إِذَا رَأَيْتَهُمْ) أي متفرقين في خدمة أهل الجنة (حَسِبْنَاهُمْ) من حسنهم وجمال هيئتهم وكثرتهم (لَوْلَوْأَ مَنُورًا) أي في صفائه وبياضه ولمعانه.

أثر التشبيه على المعنى:

هذا التشبيه من التشبيه المرسل المجمل فقد ذكرت أداته ولم يذكر وجه الشبه فيه ليعم جميع الجهات التي تصلح أن تكون وجه شبه، وبما أن سياق الآية في ذكر نعيم أهل الجنة فكل وجه مناسب لأن يدل على النعيم فهو مراد.

وبالنظر إلى المشبه نجد أنه مشبه مقيد بوصفين: الولدان، والمخلدون وكلاهما وصفان معتبران فالولدان يدل على: القوة والنشاط في طاعة أهل الجنة وعدم استحياء المخدوم من أمرهم ونهيهم.

والمخلدون على كلا المعنيين الواردين في التفسير يدل على: الجمال والحسن والنضارة بسبب بهاء الطلعة وجمال الخلقة التي خلقهم الله عليها، وما زينهم الله به من الحلبي والزينة وهذه زينة الظاهر مع ما جملهم الله تعالى به من زينة الباطن وعدم امتناعهم واستكبارهم أو تأففهم من الخدمة.

وهذا فيه دلالة على زيادة نعيم أهل الجنة فالنفس تأنس وتسعد بأن يكون خدامها في غاية الحسن والجمال، وخاصة أن الخدم يكثر دخولهم وخروجهم - ويدل عليه في الآية لفظ المضارع: (وَيَطُوفُ) المشعر بالتجدد والتكرار - ففي كل مرة يدخل الخدم وينظر إليهم المخدمون وهم في غاية حسنهم وجمالهم يتجدد النعيم والأنس والسعادة. وبالنظر إلى المشبه به نجد أنه مقيد بوصف المنشور، وهو أحسن في المنظر من المنظوم.

(١) قواعد التفسير ٨٠٧/٢.

قال الإمام الرازي: هذا من التشبيه العجيب؛ لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه^(١).
ويدل الوصف بالمتشور على تفرقهم في خدمة أهل الجنة لأنهم لو كانوا على صف واحد ما قيد المشبه به بالمتشور، ولأن عملهم وهو خدمة أهل الجنة يقتضي التفرق والانتشار.
قال البغوي رحمه الله: قال أهل المعاني: إنما شُبِّهوا بالمتشور لانتشارهم في الخدمة، فلو كانوا صفّاً لشبَّهوا بالمنظوم^(٢).

ويدل الوصف بالمتشور كذلك على كثرتهم لأن القليل من اللؤلؤ المتشور قد لا يظهر حسنه بوضوح، فدل على كثرتهم. روى الطبري عن قتادة في قوله تعالى: (لَوْلُؤَا مُنْشُورًا) قال: من كثرتهم وحُسْنِهِمْ^(٣).

قال الإمام الرازي: وفي كيفية التشبيه وجوه أحدها: شبَّهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المتشور، ولو كان صفّاً لشبَّهوا باللؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنه تعالى قال: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ) فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين وثانيها: أنهم شبَّهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء^(٤).

ويستفاد من التشبيه حسن وجوه أهل الجنة المخدومين؛ لأنه إذا كان من إكرام الله تعالى لهم بأن جعل خدمتهم على هذه الصفة من الجمال والإشراق فكيف يكون إكرامه لهم وهم من أحبهم ورضي عنهم وسخر ما في الجنة لخدمتهم. فلا شك أنهم أحسن وجوهاً وأكثر إشراقاً، وأجمل ظاهراً وباطناً.
ومع كل ما ظهر للخيال من حسن هؤلاء الولدان المخلدون فإنهم أحسن من اللؤلؤ

(١) مفاتيح الغيب ٢٥١/٣٠.

(٢) معالم التنزيل ٢٩٧/٨.

(٣) جامع البيان ٢٦٢/٢٩.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٥١/٣٠.

المنثور ولا شك. وإنما كان تشبيههم به للتقريب والتمثيل؛ فالجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

المطلب الرابع: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ {١٩} تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَغْجَارُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ القمر: ١٩-٢٠.
قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَغْجَارُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ الحاقة: ٧.
معنى الآيتين:

يخبر سبحانه عن قوم عاد الذين أرسل إليهم نبيه هودا عليه السلام فكذبوه ولم يؤمن معه إلا القليل منهم بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا: وهي الشديدة الهبوب الباردة التي لها صوت، والعاية: التي عتت على الخزان فلم يسيطروا عليها.
(فِي يَوْمٍ نَحْسٍ) أي في يوم شوم وشر عليهم.

قال ابن عاشور: "والنحس: سوء الحال. وإضافة يوم إلى نحس من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه ... وإنما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس، فهو يوم نحس للمعذنين يوم نصر للمؤمنين ومصائب قوم عند قوم فوائد" (١).

(مُسْتَمِرٍّ): قيل استمر بهم البلاء والعذاب فيه إلى أن وافي بهم جهنم (٢).
ويجوز أن يريد بالمستمر: الشديد المرارة والبشاعة" (٣).

ووصفها الله في آية الحاقة بأنه سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، والحسوم: قيل أنها المتتابعات بحيث لم تتوقف الريح أو تهدأ خلال هذه المدة (٤).
وقيل: تحسم كل شيء، فلا تبقى منهم أحدا. أو أنها مشائم تحسم كل خير.

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٩٢-١٩٣.

(٢) جامع البيان ٢٧/١١٥.

(٣) الكشف ٦/٤٥٣.

(٤) جامع البيان ٢٩/٦١.

وأصلها من الحسم وهو القطع.

قال ابن عاشور رحمه: "وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام، فيُشار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه"^(١).

(تَنْزِعُ النَّاسَ): تقتلع الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتندق رقابهم، وتبين من أجسامهم^(٢).

(كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَحْلٍ): وهي أصولها التي قطعت فروعها^(٣).

(مُنْقَعِرٍ) أي منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض^(٤).

قوله تعالى: (فَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعى): أي ترى قوم عاد في ديارهم صرعى، والصرعى: جمع صريع أي موتى.

(كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَحْلٍ حَاوِيَةٍ): ساقطة قد خلت أعجازها بلى وفساد^(٥).

أثر التشبيه على المعنى:

هذا تشبيه مرسل يحمل ذكرت أدواته ولم يذكر وجهه، والألفاظ المستخدمة فيه تنبئ عن شدته وهوله مثل: (تنزع، صرصر، عاتية، حسوما، صرعى) وغيرها، وهو مناسب لعظم الجرم الواقع منهم من الكفر والشرك بالله تعالى، وقولهم: من أشد منا قوة، عتوا واستكبارا واغترارا بما أعطاهم الله تعالى من القوة والشدّة في الأجسام؛ فناسب أن يكون هلاكهم على قدر طغيانهم.

إضافة إلى ما في قوله تعالى: (تَنْزِعُ) من تصوير المقاومة لهذه الرياح والمحاولات اليائسة في التشبث بالسلامة والبقاء^(٦).

وقوة الأخذ وشدّة الجذب تدل على ثباتهم وقوتهم في الأرض، إما لطول أجسامهم

(٥) التحرير والتنوير ١١٧/١٤.

(١) جامع البيان ١١٥/٢٧.

(٢) معالم التنزيل ٤٣٠/٧.

(٣) روح المعاني ٨٧/٢٧.

(٤) المحرر الوجيز ٩٤/١٦.

(٥) الإعجاز البلاغي ١٢٤.

وعظمها، أو أنهم كانوا يُعملون أرجلهم في الأرض بقصد التمتع على الريح، أو أنهم كانوا يصطفون آخذين بأيدي بعضهم، أو يدخلون في الشعاب، أو يحفرون الحفر فيندسون فيها فتزرعهم الريح وتأخذهم فترفعهم ثم تكبهم وتدق رقابهم، ونزرعهم في هذه الأحوال يحتاج قوة وشدة، كما أن النخل يحتاج قلعه من مغارسة ليتحقق الوصف المذكور في الآية قوة وشدة. وأن تلك الحفر التي نزرعوا منها تشبه حفر النخل المنقعر.

وهذا الوجه مناسب لبيان حالهم أثناء النزع.

وربما ناسب أن يكون الوجه مقصودا به حالهم بعد وقوع العذاب عليهم خاصة في آية الحاقة فيكونون جثا بلا رؤوس، كما أن النخل المنقعة التي تقلع من منابتها لموتها تزول فروعها ويتحات ورقها فلا تبقى إلا الجذوع الأصلية، أو أنهم بعد إسقاط الريح لهم من العلو تدك رؤوسهم ورقابهم وتنطير أجزاءهم فيشبهون ما تشعب وتناثر من النخل المنقعر، أو أن النخل الخاوية ميتة لا فائدة منها ترجى، وكذلك هم بعد وقوع العذاب عليهم كانوا جثا هامة مصروعة ميتة لا روح فيها ولا فائدة ترجى منها.

والنخل الخاوية أيضا مجتة من أصولها قد خوى موضعها منها وكذلك هم قد خوت ديارهم منهم كما قال الله تعالى في سورة الأحقاف: (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ) (الأحقاف: ٢٥).

وقال ابن عاشور رحمه الله في آية القمر: "وهذا تفضيع لحالهم ومثلة لهم لتخويف من يراهم" (١).

وقال في آية الحاقة: "وهذا الوصف لتشويه المشبه به بتشويه مكانه... فإن لهذا الوصف وقعا في التنفير من حالتهم ليناسب الموعظة والتحذير من الوقوع في مثل أسباها" (٢).

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٩٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/١١٩.

الخاتمة

أغتنم الفرصة في ختام هذا البحث لأؤكد:

- ١- أن تشبيهات القرآن الكريم تبقى مليئة بالأسرار والمكنونات التي لم نستخرجها بعد.
- ٢- وكلما زاد تأمل هذه التشبيهات، والغوص في معانيها، ومقارنتها بالتشبيهات المماثلة لها، كلما ظهرت معان أخرى لم تخطر على بال المتأمل من قبل.
- ٣- إن تشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة المحيطة بالإنسان، التي يستطيع أن يدركها بكل سهولة ويسر، ولذلك فهي أكثر تأثيراً، وأبقى أثراً، وأشد سهولة، وأقرب للإنسان.
- ٤- إنها مع ذلك تحمل في طياتها ومعانيها الخير والهداية للإنسان، فتدفعه للفضائل، وتدله على المكارم، وتجعل في نفسه أنفة من مقاربة الرذائل، ومقارنة الآثام.
- ٥- لتشبيهات القرآن الكريم أثر عظيم في الاحتجاج والإقناع، ومجادلة الخصوم، بما يقطع الشبهة، ويثبت الحجة، ولا تزال هذه الجوانب بحاجة إلى التفكير فيها ودراستها دراسة وافية.

قائمة المصادر والمراجع

- الإعجاز البلاغي، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط ١٤٢٧ هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد القزويني المعروف بالخطيب القزويني، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٤ هـ.
- البلاغة فنونها وأفانها، فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر، ط ٦، ١٤٢٠ هـ.
- البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٩٢ م.
- التحرير والتنوير، لسماحة الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر، تونس.
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود ابن عمر الزمخشري.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للإمام عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق المجلس العلمي بتارودانت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٣٩٥ هـ.
- المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
- المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين مسعود التفتازاني الهروي، المكتبة الأزهرية للتراث.
- المنهاج الواضح للبلاغة، د. حامد عوني، مكتبة العلوم والحكم.
- أدوات التشبيه واستعمالاتها في القرآن الكريم، د. محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤٢٨ هـ.
- أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي،

- قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط ١، ١٤١٢ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير، تحقيق محمد بن إبراهيم البناء، دار ابن حزم، ط ١.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ.
- ديوان بشار بن برد، قدم له وشرحه الدكتور صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥ هـ.
- شروح التلخيص الصادر عن دار الكتب العلمية.
- فن التشبيه، لعلي الجندي، مكتبة فحضة مصر ومطبعتها، ط ١، ١٩٥٢ م.
- قواعد التفسير جمعاً ودراسة، لخالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري المعروف بابن منظور، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤.
- معالم التنزيل، لمحي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٤، ١٤١٧ هـ.
- مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط ١٠، ١٤١٠ هـ.
